بريد الجمعة

ثراء المعارف الرقمية

بريد الجمعة

الجُمعَة ■ ٨ مارس ٢٠٠٢ ■

يكتبه: عبدالوهاب مطاوع

أغصان الشجرة!

انا طبيب شاب في التاسعة والعشرين من عمري نشأت في أسرة متماسكة متدينة بين أب رحيم سمعي الكلمة ومشفق وأم حنون متعلمة، واخ يكبرني ويعمل مديراً بإحدى الشركات الكبرى واخت تصغرني ببضع سنوات. وقد تمنيت منذ صغري ان أكون طبيبا فاقتحمت بدراستي واحببتها. واخترت أن أكون انسانا خدوما لا اتاخر عن تقديم أي خدمة استطيعها لمن يطلبها مني. وانهيت دراستي وبدأت سنة التدريب العملي وحصلت على دبلومين دراسيين بعد التخرج، وكم كانت فرحة أهلي حين عينت معيدا بالكلية والقسم الذي احبه. بدأت الاستعداد لدراسة الماجستير واخترت موضوعا يفيد المرضى ووافقني عليه اساتذتي. لكنه كان يتطلب تكاليف باهظة. للبحث العلمي فتم التنسيق بين كليتي وبين مركز البحوث، واصبحت أعمل في الصباح بمستشفى الجامعة، وامضي بقية اليوم في أكاديمية البحث العلمي، وكنت قد ارتبطت عاطفيا برميلة لي وتمت خطبتنا فبدا أهلي يطلبون مني التعجيل بالزواج. خاصة وانه قد تخرجت خطيبتي. وحصلت انا على الماجستير. وعملي في الكلية موضع رضا اساتذتي وكل شيء يدعو للابتهاج والتفاؤل واستجبت لرغبة الأهل وبدأت مع خطيبتي في انهاء عش الزوجية والاستعداد للزفاف فإذا بي اسقط مغشيا على وانا اقوم بفحص احد المرضى وافقت من غيبوبتي فوجدتني محمدا فوق أحد أسرة المستشفى الذي اعمل به.. وبجواري عدد من زملائي الأطباء. وفهمت بأقربهم إلي يبلغني بأن مستوى السكر لدي يبلغ خمسة أضعاف المعدل الطبيعي، وأنه سبب هذه الغيبوبة المفاجئة! وتساءلت متألما سكر في هذه السن؟ ثم سرعان ما استعدت توازني.. واعانني على ذلك التفاف الأهل والأصدقاء حولي.. لكني فوجئت بعد ذلك بفتور خطيبتي تجاهي وفوجئت بها تتكثر من الحديث المتشائم معي عن المشاكل الصحية المتوقعة في المستقبل بالنسبة لمرضي.. والمضاعفات.. والمحاذير الخ.. وكأنني مريض تفحصه ولا تربطها به صلة وليست خطيبتي.. وادركت الموقف المؤلم.. واحسست بالمرارة.. وخلال فترة قصيرة كانت قد انسحبت من حياتي تاركة وراءها غصة في النفس والقلب، وكمحاولة من جانب أبي لأن يخفف عني بدا يلح علي في أن ارتبط بابنة أقرب أصدقائه إليه.. ولم أجد ما يمنعني من الاستجابة لرغبته خاصة وانها فتاة مهذبة وزوجة صالحة لمن يرتبط بها. وبدانا نتحدث في الأمر مع وتمما.. ووجدت من واجبي أن أصارحه بمرضي قبلما به.. فانفرد بي جانبا وأبلغني بطريقة مهذبة انني إذا اصررت على هذا الارتباط فلن يعارضه لكنه يفضل لو جاء التراجع أو الرفض من جانبي انا.. وليس من ناحيته حرصا على صداقته لأبي.. وأبت على كرامتي أن استغل حرج والد الفتاة من أبي واستمر في مشروع الخطبة فعرفت عنها دون ابداء اية أسباب لأبي.. لكني تساءلت مغرورا وهل ضمنت خطيبتي الأولى أو الثانية الا يصاب من ترتبط به برباط الزوجية بالمرض في المستقبل؟ وهل الزواج هو مجرد علاقة جسدية أو مادية فقط.. وسلمت أمري لخالقي وعرفت أن الله سبحانه وتعالى سوف يعوضني خيرا واسدلت الستار على موضوع الارتباط والزواج في حياتي.. وانخرطت في العمل باهتمام مضاعف.. وكرست كل وقتي له وزاد دخلي كثيرا والحمد لله.. وبدأت في التفكير في انشاء مركز صغير متخصص في مجالي.. وشجعني ابي اكرمه الله على هذا المشروع وساعدني عليه ماديا.. واشركت معي اخلص أصدقائي.. وحصلنا على المكان.. وتعاقدنا على الأجهزة.. واحتاج الأمر إلى بعض عمليات الهدم والبناء الداخلية ورشح لنا الاصدقاء احدى الشركات المتخصصة في هذا المجال وطلبنا موعدا مع مسئول هذه الشركة وذهبنا إليه فإذا به مهندسة شابة جميلة ومريحة.. وتم الاتفاق وبدأ تنفيذ الاعمال.. ووجدتني أتردد على المكان كثيرا.. واختلق الاعذار والاسباب لاتصل بالمهندسة المشرفة واتحدث إليها.. وسلمت داخليا أن يتبوع الحب المحبوس داخلي قد تفجر منذ رأيت هذه المهندسة وتعاملت معها.. وانتهت الاعمال.. وشعرت بأن الفرصة تضيع من بين يدي فتجرأت وسلمتها ورقة صغيرة اعبر لها فيها عن مشاعري الصادقة واسألها عن رأيها في. وفي المساء اتصلت بها مندوجسا وحدثتها فبكت وصارحتني بانها تبادلني مشاعري لكني استحق من هي أفضل منها لأنها مطلقة ولديها طفلة صغيرة. وانهت المكالمة دون ان تدع لي أي مجال للمحاولة معها واتصلت بوالدها فوجدته يعرف بما حدث وروى لي عن سوء حظها في زواجها السابق وكيف تزوجت من اختاره هو لها وهو ابن احمد اصدقائه ولم يكن يعرف الكثير عن هذا الابن، وكيف تبين بعد الزواج بثلاثة اسابيع فقط ولسوء الحظ انه مدمن وكيف انتابته حالة هياج مدمرة ضربها خلالها بعنف شديد فكسر يدها واصابها اصابات متعددة فرجعت إلى بيت أبيها وطلبت الطلاق وحصلت عليه، وبعد شهرين فقط من الطلاق مات زوجها السابق بجرعة زائدة لكنها كانت قد اكتشفت انها حامل، ورفض هو أي محاولة لاجهاض ابنته. واعتبر مولودتها حين جاءت إلى الحياة أختا صغرى لها.. وتقدم لها بعد الطلاق كثيرون لكنها عزفت عن الزواج تأثرا بمرارة تجربتها الوحيدة معه. وشعرت أنا بأن تمسكي بها قد ازداد عمقا بعد أن عرفت كل ذلك عنها وطلبت من والدها أن التقي بها في بيته وقابلتها عدة مرات واحببت طفلتها الصغيرة وتعلقت بها، وعرضت الأمر كله على شقيقي الأكبر فباركه وتعرف على تلك السيدة الشابة واحبها واحترمها.. وعرفتها بأبي وامي وأختي فاحبوها [illegible] بمرضي.. وربما لأنني خشيت أن تتركني إذا عرفت؟ واستخرت الله سبحانه وتعالى وصارحتها فبكت وتساءلت.. وماذا لو كانت هي التي مرضت بهذا المرض.. اكنت ستتركها وانصرف إلى غيرها؟.. ثم شاركتني الاهتمام بأسلوب الغذاء والرعاية والمتابعة لدى الطبيب المعالج بحب ومودة.. وأحسست بطعم السعادة الحقيقية معها وبمجرد رؤيتها وسماع صوتها، وحانت اللحظة الحاسمة لابلاغ ابي وامي وأختي بظروفها الاجتماعية كمطلقة وأم لطفلة صغيرة، فلم تغير والدتي وأختي رأيهما فيها.. اما والدي الحبيب فلقد رفض ارتباطي بها بعنف شديد قائلا لي، انني قد خنت الثقة ولم اصارحهم بظروفها منذ بداية التعارف وها هو ما اعترف به بالفعل لانني لو كنت قد صارحتهم بالتفاصيل في البداية لما سمحوا لي بتقديمها إليهم ولضيقوا على الخناق حتى لا أعرفها، وحاولت مع ابي مرارا وتكرارا أن يعدل عن موقفه ويبارك رغبتي في الارتباط بهذه السيدة وحاول أخوتي وامي فأصر على رفضه وهددني بمقاطعتي وقطع صلة رحمي إذا تزوجتها.. فابلغته انني لا أستطيع الاقدام على شيء دون موافقته ومباركته ودعائه لي كما أن والد فتاتي كذلك يأبى لها ذلك لأنها لا ينقصها اي اعتبار ولم تخطئ في شيء، وليس بها عيب وإذا كان ثمة خطأ في الأمر كله فهو خطؤه هو في سوء اختيار ابن صديقه لها دون ان يتحرى حقيقة شخصيته وظروفه ولقد كررت المحاولة مع أبي من جديد وسألته عما سيكون عليه الوضع لو كانت اختي هي التي واجهت نفس هذه الظروف، فنهرني قائلا: إنه سوف يحسن لها الاختيار بحيث لا تتعرض لمثل هذه الظروف إن شاء الله، انني ارجوك ان تساعدني في اقناع ابي الحبيب بأن يدخل البهجة والسرور إلى قلبي وأن يبارك هذا الزواج لكي نندم جميعا بالحب والرحمة والمودة التي زرعها الله في قلوبنا.. وهو من قرائك الدائمين ويحترم آراءك فهل تفعل ذلك من أجل شاب محب وسيدة شابة أمينة برغبان في أن يقضيا ايام معا؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لا خلاف على انك قد اخطأت بتعمدك إخفاء حقائق الظروف الاجتماعية للسيدة الشابة التي ترغب في الارتباط بها عن أبيك منذ بداية تعرفه عليها. ولا يشفع لك في ذلك تخوفك من ان يرفضها على الشو إذا عرف بظروفها في تبرير هذا الخطأ، وهو محق تماما في احساسه بانك قد حاولت استدراجه للقبول بارتباطك بها بغير ان تضع أمامه كل الحقائق الصحيحة عنها.. ومحق كذلك في استنكاره لهذا التصرف من جانبك لانه يتعارض مع الثقة التي ينمحها الأب لابنه.. ومع أمانة هذا الابن في عرض الأمور عليه فالحقيقة خير دائما من اي زيف.. وفارق كبير بين ان يختلف الأب مع ابنه في تقديره لبعض الأمور اعتمادا على الحقائق الصحيحة.. وبين ان يستدرجه هذا الابن لتأييد بعض المواقف او الاختيارات بالتعمية على بعض الحقائق او اخفائها. [illegible] في الرأي والرؤى بين الأب وولده اما في الحالة الثانية فإنه يكون خطأ اخلاقيا مؤسفا من جانب الابن في حق ابيه ولهذا كله فانت مطالب أولا وقبل كل شيء بالاعتراف لأبيك بهذا الخطأ والاعتذار عنه.. ومن ثم يبدأ الحوار حول رؤية كل منكما لمن ترغب في الارتباط بها.

وفي كل الظروف والأحوال فلابد ان نسلم بان دوافع ابيك للاعتراض على هذا الاختيار هي في الأصل دوافع تتعلق بحدب هذا الأب عليك.. وحرصه على سعادتك الشخصية من وجهة نظره ورغبته في سعادتك وفقا لمفاهيمه واستطرادا لامنية كل اب لان ينال ابنه دائما افضل عطايا الحياة والحد الأقصى من الاشياء ومن زاوية الرؤية هذه فإنه يرى ان هذا الزواج ليس الاختيار الأمثل لك لانه يتضمن تنازلا عن الحد الاقصى للاشياء وقبولا «بعيء» عائلي لا يرى أن ظروفك كشاب لم يسبق له الزواج تضطرك للقبول به وهو طفلتها الصغيرة غير انه لا يغيب عن حكمة ابيك في الوقت نفسه ان السعادة مطلب عزيز المنال، وانه إذا استشعر الإنسان صدق الحب والرغبة في السعادة مع طرف اخر تتوافر فيه كل المزايا والفضائل الأخرى ولم يكن هناك ما ينكره البعض عليه سوى مثل هذه الظروف الاجتماعية التي قد تتعرض لها اي فتاة كريمة رغما عنها.. فإن الحكمة تطالبه بالتنزل عن بعض هذا الحد الاقصى من المطالب من الحياة وبالقبول بما يحقق له الامل في الهناء بغير ان يتوقف كثيرا امام هذا الاعتبار. كما ان الانصاف ايضا يقتضي من أبيك الرحيم الا يركز بصره فقط على ما «تنازل» عنه ابنه في سبيل الفوز بالسعادة في هذا الارتباط وان يمد بصيرته أيضا الى الطرف الآخر في هذه القصة ليعترف لهذه السيدة الشابة انها هي الأخرى لم تكن اقل استعدادا لتقديم القرابين في سبيل نيل الحب والسعادة والأمان.. فهي لم تتوقف على سبيل المثال امام ما سبق ان توقفت امامه خطيبتك السابقة وحطمت من اجله مشروع الارتباط القديم.. وتوقف امامه ايضا صديق والدك الحميم واشفق على ابنته منه وإذا كان والدك يشفق عليك من عبء الطفلة الصغيرة.. فإن حكمته لابد وانها تدرك ان ما قد يراه من يحكم على الأمور بالمنطق المجرد «عبئا» وهو هذه الطفلة الصغيرة قد يكون في رؤية المحب الراغب بشدة في السعادة مع أمها امتدادا لحبه لها وليست عبئا انسانيا كما يتصور، والمفكر الفرنسي الكبير فولتير يقول إن من احب الشجرة احب أغصانها! وهذه الطفلة الصغيرة هي الغصن الذهبي لشجرة هذه السيدة الشابة فإذا صدق حبك لها صدق بالضرورة حبك لابنتها.. وامتد إليها.

«وبحسن المعاشرة تدوم المحبة» كما يقول لنا المفكر الامريكي ايمرسون وليس «بمثالية» ظروف الطرفين ولا بخلوها من اية اعباء انسانية ولا بتوافقها مع الحدود القصوى للاشياء، فإذا لم يكن لدى أبيك من الاعتبارات الأخرى ما يعترض عليه سوى ظروف هذه السيدة الشابة كمطلقة وأم لطفلة.. وتوافرت فيها كل الشروط والمزايا الاخرى وكان الحب متبادلا وصادقا.. الرغبة في أن يعوض كل منكما الآخر عما ينقصه [illegible] فلابد ان تنجح عشرتكما وتثمر ثمارها الطيبة بإذن الله.. غير أن كل ذلك لن يتحقق لك إلا إذا استكملت اسباب الأمل في السعادة الشخصية بنيل رضاء ابيك ومباركته لاختيارك وحياتك وثق من انه لن يضن عليك بتأييده لك إذا كانت كل الاعتبارات الأخرى متوافرة في شخصية فتاتك وإذا استشعر كذلك انك مستمسك بهذا الاختيار إلى النهاية.. وانك ستظل صابرا ومتصبرا إلى ان يشفق عليك من ان يحرمك إلى ما لا نهاية مما تعتبره سعادتك ولابد ان والدك ممن يقدرون جيدا نعم ربهم الجليلة عليهم ويعرفون تماما أن من أجل هذه النعم ان يكون للمرء ابناء راشدون يملكون زمام امورهم بايديهم ويستطيعون ان يفعلوا بحياتهم ما يشاءون لكنهم يقبضون على قيمهم الدينية كما يقبض المرء على الجمر ولا يجرؤون.. حبا وكراهة.. على الخروج على طاعة آبائهم وأمهاتهم ولا تهنأ لهم حياتهم إلا إذا استشعروا رضاء الأهل الأقربين عليهم.. ومباركتهم لاختياراتهم!